الفصل الثانى

المجتمع الإسلامى فى أصالته

قام المجتمع الاسلامى على اساس :

من دعوة الاسلام الى « المساواة » فى الاعتبار البشرى ،

وأن الذى يحقق هذه المساواة هو « الحرية » التى يجب أن تتوفر للعقل فى تفكير الانسان ، وفى اعتقاده وفى تصرفه وسلوكه .

فقد نادى بالمساواة فى هذا الاعتبار فى جملة من آيات الكتاب المبين ، على نحو ما جاء فى قول الله تعالى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ... » (١)

... فأصل القرآن الكريم فى هذه الآية « المساواة » فى الانسانية (الناس) على مبدأ : أن الكثرة التى خلقت من البشر مردها جميعها فى الخلق الى : **« نفس واحدة »** ، ومرد كثرتها الى المزاوجة بين الذكر والأنثى ، اللذين هما من نفس واحدة أيضا .

واذا رد جميع أفراد البشرية الى نفس واحدة فى التكوين ، فهم حتما متساوون فى خصائص الانسانية ، لا يتميز بعضهم عن بعض ، نقصا أو زيادة فى هذه الخصائص . اذ الطبيعة واحدة ، واعدادها على نحو متساوى .

---

(١) النساء : ١ .

... وما جد فى حياة الناس بعد ذلك من :

غنى وفقر ،

وضعف أو قوة فى عصبية الأسرة ،

ومباشرة أو غير مباشرة فى توجيه الأمر ،

... لا يغير من المساواة فى القيمة البشرية لجميع الأفراد .

... واختلاف الناس فى ميولهم واتجاهاتهم :

هذا الى القوة والحرب ،

وذلك الى الدعة والسلام ،

وهذا الى التطلع الى السيطرة وذلك الى الطاعة والخضوع ،

وهذا الى العمل اليدوى وذاك الى العمل العقلى ،

وهذا الى جمع المال وكنزه وذاك الى انفاقه أو تبديده ،

وهذا الى الكثرة فى النسل وذاك الى القلة فيه ،

وهذا الى الظهور والخيلاء وذاك الى التواضع أو العزلة .

... اختلاف الناس فى ميولهم واتجاهاتهم هذه وأمثالها أمر طارىء على مقومات الطبيعة البشرية ، وتجانسها فيها ، وهو عرض وليس بأصيل فيها ، حتى يمكن أن تتنوع هذه الطبيعة الى أنواع مختلفة .

نعم فى داخل مقومات الطبيعة البشرية وخصائصها قد يتميز فرد عن فرد فى قوة الميل أو ضعفه نحو هذا أو ذاك ، ولكن أصول الميول قائمة . ومن ثم فالاعتبار البشرى لكل الأفراد واحد :

هم من نوع واحد ، مهما كانت الفروق الفردية داخل الاطار العام للطبيعة البشرية .

وعلى أساس من الفروق الفردية قد يتم التمايز بين الأفراد كأفراد ، ولكن لا يدعو هذا التمايز الى قيام الطبقية ، وتقسيم النوع الانسانى

الى طبقات ، يفضل بعضها بعضا فى القيمة الانسانية ، ويبرر تفاضلها استغلال الأعلى منهـا للأدنى ، على نحو مـا هو معروف فى تـاريخ المجتمع الأوروبى .

يقول الله تعالى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

... فبعد أن يقرر القرآن الكريم هنا : المساواة فى الطبيعة البشرية بين الناس جميعا بخلقهم من ذكر وأنثى ، لا يرى : أن اختلافهم الى شعوب وقبائل يعـود الى أساس التفاضل بينهم ولا يؤدى اليه أيضـا ، ومن ثم يتيح الفرصة لاستعلاء بعضهم على بعض .

وانما اختلافهم فى ذلك مدعاة للالتقاء والتعارف فيما بينهم . اذ قـد يكون بعضهم ثريا ، أو قويا ، أو كثير العصـبة ، والبعض الآخر فقيرا ، أو ضعيفا ، أو قليل العصبية فى الرجال ، فتكون هنا حاجة لتعاون الثرى والضعيف ، أو قليل العصبية ، مع القوى فى عصبيته والفقير فى ماله .

فالأمة الضعيفة فى خبرتها والغنية فى مواردها الطبيعية فى حاجة الى أمة أخرى قد تكون فقيرة فى هـذه الموارد ، لكنها قوية فى الخبـرات والكشف عن مصادر الثروة .

... ثم كذلك بعد هـذا كله يرى القرآن الكريم هنا أيضـا : أن المساواة فى الطبيعة البشرية وفى الاعتبار البشرى والقيمـة الانسانية ـ ولذا ينبغى أن لا يسخر أحد من أحد : **« يأيها الذين آمنوا لا يسـخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نسـاء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن »** (٢) ـ لا تحول دون التمايز بين الأفراد ، تبعا لما بينهم من مفارقات فى الميول الطبيعية فى قوتها وضعفها . وهنا تقول هذه الآية الكريمة :

« ... ان أكرمكم عند الله أتقاكم » اى أن فضـل بعضكم على بعض

---

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) الحجرات : ١١ .

لا يعود الى قبلية ، ولا الى شعوبية ، ولا الى طبقية ، مما يتخذها مجتمع الجاهلية اساسا للمفاضلة ، والتفرقة والتمييز بين الناس . وانما يعود الى السلوك الكريم المهذب الذى ينطوى على احسان للنفس وللغير معا ، فضلا عن أنه يجنب الضرر والايذاء للنفس أو للغير كذلك .

وهذا السلوك الكريم هو ما يؤول اليه معنى « التقوى » التى جعلتها الآية هنا نقطة المفاضلة بين الأفراد .

ومثل هذا السلوك يكون فرديا ، وليس طبقيا . لأنه يتصور : أن يقع من أى فرد من أفراد الانسان ، بغض النظر عن المجموعة التى يكون فيها حسبما تصنفه تقاليد المجتمعات ، أو بغض النظر عما بقى من رواسبها فى تقييم الناس ومجموعاتهم .

وقد ينشأ عن هذا التمييز وصف للمتميزين يعرفون به دون من عداهم ، ومع ذلك لا يكونون طبقة بالمعنى المفهوم للطبقة ، كالوصف بالمؤمنين فى مقابل : الكافرين ، والفاسقين ، والمنافقين .

والاسلام قبل أن يدعو الى « المساواة » وابعاد روح الطبقية فى مجتمع الدعوة الاسلامية دعا الى « الحرية الفردية » عن طريق الايمان بالله أولا ، على أن هذا الايمان أمر يخص الطبيعة الانسانية وحدها ، بجانب ما عرف لهذه الطبيعة من خصائص شائعة قبل الاسلام عن الاغريق من : العقل ، والغرائز التى يشاركه فيها الحيوان .

وبذلك تختلف نظرة الاسلام الى خصائص طبيعة الانسان عن تلك النظرة التى عرفت للاغريق ، وتكون على أساس منها : المجتمع الاغريقى ، فالمجتمع الأوروبى ... الى الوقت المعاصر ، واختلاف النظرتين بعضهما عن بعض أمر عميق الجذور والأثر معا فى بناء المجتمع الانسانى وفى بقاء تماسكه .

فاذا كانت الفلسفة الاغريقية التى قام على أساسها المجتمع الأوروبى حتى الآن ترى : أن خاصية الانسان فى : العقل ، أو فيما يسمى : الادراك ... فان الاسلام يرى بجانب الادراك خاصة أخرى للانسان ، وهى خاصة الايمان بالله .

والسمع والبصر ان كانا الطريق الرئيسى الى الادراك الحسى فالعقلى فى الانسان .. فالقلب فى الانسان هـــو الطريق الأول والأخير للايمان بالله لديه .

وجعل القلب مكان الايمان بالله ، لا باعتبار أنه المركز الرئيسى للدورة الدمـــوية ، فذلك أمر يتعلق بالوظيفة الطبيعية الحيـــوانية له ، ولكن باعتبار : انه يمثل العمق فى نفس الانسان ، فليس هو على ســـطح بدن الانسان ، كما هو شأن العين مركز الابصـــار ، والأذن مركز السمع .

وهذا يعطى أمرين :

أولا : أن الايمان بالله اذا استقر فى القلب أى فى أعماق النفس قلما ينسى ، أو قلما تنال منه أحداث الزمن .

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حـــاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » (١) .

... فالآية الكريمة تشير الى أن سبب الموقف القوى الذى يقفـــه المؤمنون من أعـــداء الله ورســـوله ـــ وهو ذلك الموقف الذى لا تهزه العواطف وعلاقة الدم والقرابة ـــ يعود الى أن الايمان قد نقش واستقر فى قلوبهم .

نعم .. تأييد الله لهم فى هذا الموقف له دخل فى قوته ، ولكن التأييد من جانب الله هو مظهر آخر من مظاهر الايمان . فلولا الايمان لمـــا كان التأييد للمؤمنين بعد ذلك .

.. . بخلاف ما يأتى به البصر ، أو السمع . فانه عرضة للنسيان ، أو الاختلاط بغيره من المدركات الأخرى .

ثانيا : من أجل ذلك : ان القيمة الذاتية للايمان بالله فى حيـــاة الانسان أكثر ايجابية ، مما يوصـــله البصر ، أو السمع ، للادراك الداخلى .

---

(١) المجادلة : ٢٢ .

فمن حيث اضافة القلب فى نظرة الاسلام كخاصة يتميز بها الانسان عن الحيوان بجانب الادراك ، يقول القرآن الكريم :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (١) .

... فانتظار الشكر من الانسان فى هذه الآية على خلق السمع ، والبصر له ، والفؤاد فيه ، لا باعتبار أنها أجهزة طبيعية تؤدى دورها الطبيعى العادى للانسان كما تؤدى ذات الدور للحيوان . ولكن باعتبار : أنها مصادر علم ، وتوجيه ، وهداية له .

وبذلك تمثل خواصه التى أنعم الله بها على الانسان ، وميزه بها على غيره ، مما يشاركه فى الحركة ودفع الغريزة ، وهو الحيوان .

وبذلك أيضا يظهر التقابل فى الآية بين شقها الأول وهو :

١ ــ « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » ... فنفى أن يكون للانسان علم مسبق قبل ولادته .

... وشقها الثانى ، وهو :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ... فابرز هنا استعداد الانسان الآن لتحصيل العلم ، والهداية بما أعد به . وهو ما يجب أن يشكر الله عليه .

والانسان فى نظر الاسلام اذن ليس بالادراك ــ الحسى والعقلى ــ وحده . وانما هو انسان بادراكه الذى وسيلته الرئيسية السمع والبصر ، ثم بايمانه كذلك الذى طريقه القلب أو الفؤاد .

والادراك ، والقلب ــ بناء على ذلك ــ يتحمل الانسان مسئوليتهما فى توجيههما الوجهة السليمة . وهى مسئولية كون الانسان انسانا فى : توجيهه ، وفى سلوكه ، وفى مواقفه وحلوله لمشاكل الحياة .

---

(١) النحل : ٧٨ .

« ولا تقف مـــا ليس لك به علم ، ان الســـمع والبصر والفـــؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (١) .

---

(١) الاسراء : ٣٦ .

فالقرآن الكريم يطلب من الانسان هنا كمبدأ عام — بعد أن حدد له منهج الاعتقاد والسلوك نحو الآخرين معه فى مجتمعه — أن يكون سمعه وبصره وقلبه وسائل علم ، وليست وسائل ظن ، على معنى أن يجنبها تتبع مالم يعرفه ومالم يجزم به . وبذلك يبقى بعيدا عن ان يسىء لنفسه أو لغيره .

أما المنهج المشار اليه فقد ذكره :

١ — فى جانب الاعتقاد فى قوله :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه ... »

٢ — وفى جانب السلوك نحو الوالدين فى قوله :

« ... وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

٣ — وفى جانب السلوك نحو الأقارب وأصحاب الحاجة فى قوله :

« وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ... » .

٤ — وفى جانب السلوك فى انفاق المال فى قوله :

« ... ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ... » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » .

٥ — وفى جانب السلوك بشأن الأولاد فى قوله :

« ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، ان قتلهم كان خطأ كبيرا » .

٦ — وفى جانب حرمة العرض فى قوله :

« ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » .

=

... ومن هنا اذا تعثر الانسان فى طريقه الى الانسانية ، وانحرف عن مستواها ، فانه لا شك يكون قد قصر فى سعيه : اما عن طريق عقله أو عن طريق قلبه ، فاغلق منفذ سمعه أو بصره ولم يعتبر بما سمع من احداث التاريخ ، أو يرى من الشواهد المادية فى الحياة الانسانية أو يحجب قلبه عن أن ينفذ اليه الايمان بالله متأثرا بمتع الحياة وفتنتها فينصرف اليها كلية ، ولا يستطيع حينئذ أن يعرف حدود نفسه فيزل وينحرف :

((وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا بــه يستهزءون)) (١) .

... فيحمل القرآن هنــا أولئكم الذين أساءوا استخدام ادراكهم الانسانى ، وأفئدتهم ، مغبة اساءتهم اياها ، وقد أساءوا استخدامها ، اذ جحدوا بآيات الله واســتهزأوا بها ، فلحتهم نتيجة ذلك من الدمــار والخراب ما أطاح بهم وأفناهم .

كما يقول فى آية أخرى :

((أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون)) (٢) .

=

٧ — وفى جانب حرمة النفس فى قوله :

((ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ، انه كان منصورا)) .

٨ — وفى جانب حرمة مال اليتيم فى قوله :

((ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده)) .

٩ — وفى جانب حرمة العهد والمعاملة فى قوله :

((... وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا)) . (الاسراء : ٢٣ — ٣٥) .

(١) الأحقاف : ٢٦ .　　(٢) الجاثية : ٢٣ .

obeikandl.com

... معللا أن السبب فى اتباع بعض الناس غرائزهم ، وشهواتهم ، وأهواءهم ، وفى اتباعهم ما يسمى بـ « النفس الأمارة بالسوء » على نحو ما يذكر القرآن : **« وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى، ان ربى غفور رحيم »**(١) ... بحيث يصبحون فى تبعيتهم لها عبادا لها وتصبح هى فى نظرهم آلهة ، وبذلك يضلون فى تفكيرهم ، وفى اعتقادهم ، وفى مشاعرهم — معللا أن السبب يعود الى اساءة استخدامها ، وعدم الانتفاع بها كما ينبغى ، كخاصة للانسان فى انسانيته ، تميزه عن الحيوان المشارك له فى تلك الغرائز وحدها .

وعبر هنا عن اساءة استخدامها بما يفيد الاستمرار فى تلك الاساءة ، وعدم السماح بفترة يعدل فيها الى النهج السليم بشأنها .

فالختم على السمع والقلب ، وجعل الغشاوة على البصر يؤذنان باحكام الحيلولة دون سماع الحق ورؤية الهدى ، والايمان بالله مصدر الحق والهدى معا .

ومن أجل ذلك تنفى الآية على وجه التأكيد — فى صورة استفهام انكارى — أن تكون ذاته ، أى الانسان ، على هذا النحو مصدر هداية له . لأنه يكاد يكون قد نحى انسانيته تماما عنها . وليس له بعد ذلك سوى الله جل شأنه . فهو وحده الذى يستطيع أن يغير أمره .

أما من حيث منزلة « القلب » بالنسبة لوسيلة « الادراك » وأهميته فى حياة الانسان ... فيذكر القرآن الكريم فى قول الله تعالى :

« فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٢) .

... اذ الآية الأولى من الآيتين هنا تشير الى أن تغيير المجتمع ، واستبدال مجتمع جديد بمجتمع سابق عليه ، يتم عندما ترتكب قيادة المجتمع

---

(١) يوسف : ٥٣ . (٢) الحج : ٤٥ ، ٤٦ .

السابق انحرافا فى الاعتقاد والسلوك . وبذلك تظلم هذه القيادة المجتمع كله ، كما تظلم نفسها ، فتستحق الزوال والتغيير .

على أن زوالها وتغييرها لا يصيب الحضارة المادية للمجتمع بأضرار من جراء الانحراف ، كما يصيب الأشخاص أنفسهم . فالحضارة المادية باقية عنوانا ودليلا فى الوقت نفسه على ما كان ، ثم صار اليه الأمر فى المجتمع . أما الأشخاص فلابد أن ينحوا تمهيدا لازالة الفساد والانحراف . بسبب أو بآخر .

... والآية الثانية هنا فى الآيتين أيضا تعيب على الآخرين الذين انحرفوا فى ايمانهم . كذلك فكذبوا بما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يعتبروا بأحداث التاريخ ولم يعرفوا منها : أن الانحراف والفساد والظلم لا تخلف ثلاثتها الا القضاء حتما على المنحرفين والمفسدين والظالمين أنفسهم . فتلك قضية أولية ، ومبدأ اجتماعى يحكم بقايا المجتمعات الانسانية وزوالها :

فالآية اذ تندد بعدم اعتبارهم بالتاريخ وحركته ترجع عدم اعتبارهم هذا الى حجب قلوبهم وعدم تركها مفتوحة حرة للايمان بالله وحجبها : اما بحرصهم على خرافات يعتقدون فيها فلا مكان بها لايمان جديد ، واما باتباعهم هواهم فلا يستطيعون صده وعندئذ يسد عليهم جميع مشاعر النفس فلا ينفذ الى القلوب ايمان أى ايمان .

ولما كانت القضية هنا قضية الايمان والانحراف فيه أو عنه ، وضعت هذه الآية الثانية هنا الأهمية على القلوب أولا . وذكرت من أجل ذلك أن الهداية هنا مردها الى القلب النير وأن الضلال والكفر هنا أيضا مرده الى القلب الأعمى . « **فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** » .

والمسألة اذن ليست مسألة هداية بصرية ، وانما هى هداية قلبية .

ولأجل أن أمر الهداية والكفر — وهو السياق الذى نزلت فيه الآيتان السابقتان — يتعلق بالقلب أعطيت للقلب فى الآية الأولى خاصية الادراك الانسانى وهو التعقل « ... **فتكون لهم قلوب يعقلون بها** » على اعتبار

أن التعقل أو الادراك من شأنه ان يوصل الى التوجيه السليم . وكأن الآية اكتفت بالقلب عن العقل هنا لأهمية القلب . وكأن القلب لهذه الأهمية فى مجال الايمان والكفر يباشر خصيصته من الايمان ، كما يباشر خصيصة العقل من الادراك معا .

أما ذكر السمع فى قوله : **« أو آذان يسمعون بها »** ... فطالما أن الأمر يرتبط بالتاريخ وأحداثه فمن الامعان فى التنديد بعدم الاعتبار بها أن ينفى عن الذين لم يعتبروا بها : أن تكون لهم آذان يسمعون بها ما ترويه حقائق الماضى وأحداثه .

... وليس وصف القلوب فى الآية الأولى هنا بأن بها التعقل **« فتكون لهم قلوب يعقلون بها »** .. دليلا على أن المراد « بالقلب » فيما يجىء ذكره فى القرآن الكريم هو « العقل » . واذن تتحدى نظرة الاسلام الى ما يتميز به الانسان عن الحيوان مع النظرة السابقة عليه ، وهى نظرة الاغريق مثلا فى الفكر الأوروبى . لأن العقل الذى هو الادراك ؛ لا يدخل الايمان فى نطاقه. على معنى أن ايمان الانسان يستقر وراء الادراك ، وغالبا ما يكون عاملا من عوامل الترجيح والحكم الذى هو وظيفة الادراك واذن ليس هو ، وانما غيره .

واذا كان هناك فى عرف علماء النفس فى الانسان دائرة « لا شعورية » وراء الادراك ، ودائرة أخرى شعورية وهى الادراك نفسه فان موضوع الايمان اذا مر بالدائرة الشعورية أول الأمر فان تصرفه بعد ذلك يكون منبثقا من الدائرة الثانية .

وميزتها : ان ما استقر فيها يدفع الانسان ويحركه فى اتجاه الموضوع الذى استقر ، دون حاجة جديدة الى التفكير والترجيح والحكم فى هذا الموضوع . ومن هنا كان دفع الايمان دفعا مستمرا .

وبنظرة الاسلام الى الانسان ، وبتحديد ميزته عن الحيوان المشارك له فى الحركة والغرائز .

- بالادراك أولا ،
- ثم بالفؤاد مع ذلك .

... أعطى الاسلام صمام أمان قوى لعقل الانسان فى أن يكون — كما أريد له فى خلقه — قوة فى توجيه الانسان ، يرتفع فيه فوق سيطرة الشهوة وتحكم الغرائز .

وعندئذ يمكن للانسان أن يستنير بقوة ادراكه بعقله ، ويهتدى بها فى حل مشاكل الحياة ، دون مخاوف الانحراف أو الانحدار الى مستوى أدنى من مستوى الانسانية فى السلوك والتصرف ، وبذلك يحقق الانسان انسانيته فى ذاته وفى مجتمعه .

لفت الاسلام النظر الى « القلب » فى الانسان كمقر للايمان بالله ، ثم تأكيده أهميته لصالح العقل فى مشادته مع الغرائز ، وفى محاولة كل منهما السيطرة على توجيه الذات ... يشكل النقطة الفاصلة فى بناء المجتمع الانسانى :

تلك — أى النظرة الأوروبية — نظرة تثق تمام الثقة فى قدرة العقل الانسانى ، مع ضعفه فى بعض مراحله الأولى ، على قيادة الغرائز الانسانية والتحكم فى توجيهها ، مع ما لها من قوة الاعداد فى مباشرة وظائفها ، منذ ولادة الانسان .

وهذه أى النظرة الاسلامية — نظرة مع احتفاظها للعقل بوظيفته ، وهى توجيه الذات وهدايتها فى حل الصعوبات التى تواجهها ، تريد له ان تمر مراحله الأولى ، وهى مراحل نشأته وتطوره ، دون أن تشتد فيها الغرائز بحيث تنزع منه زمام القيادة فى التوجيه .

... هذه النظرة الاسلامية لا تلغى وظيفة العقل ، اذا هى لفتت النظر الى « القلب » والايمان ، وأكدت دورهما فى حياة الانسان .

وانما هى تساعد العقل فقط على أن يكون نموه وتطوره خاليا من العقبات التى تجمده ، أو تقوده لتبعية الغرائز : مصادر الشهوات الانسانية وبهذه المساعدة تفسح أمامه الطريق السليم للنمو والتطور .

... هذه النظرة الاسلامية تريد للعقل الانسانى أن يباشر وظيفته فى استقامة ، وفى غير ضغط عليه .

... تريد له « الحرية » لينمو ويعيش فيها ، ولتكون له صفة لازمة فى عمله وتقديره ، طالما يعمل ويقدر .

ان الاسلام يثق بالعقل الانسانى ، كما يحتفظ له بدوره فى حياة الانسان ، ولكنه فحسب لا يبالغ فى هذه الثقة بحيث يرى العقل وحده وهو فى طفولته ، قادرا على كبح جماح الغرائز والشهوات .

والفرق بين النظرتين — أى الاسلامية والأوروبية — ليس فى الثقة فى العقل وفى عدمها فيه ، بل فى الاعتدال والمبالغة فيها ... وليس فى ابعاده عن وظيفته وهى التوجيه والهداية ، وانما فى مدى تمكينه من هذه الوظيفة .

نظرة الاسلام تسعى الى هذا التمكين بحيث ، لا تعتريه فترات ضعف، أو ركود أو انحراف .

والنظرة الأخرى تتركه لظروف الذات والبيئة والمجتمع ، أى تتركه للصدفة والعوامل الأخرى الخارجية عن ذات الانسان .

... نظرة الاسلام ترغب فى « حرية » العقل فى مواجهة غرائز الانسان ... ترغب فى أن يحقق : أنه مصدر « الارادة » فى الانسان اذ بالارادة وحدها يمكن للانسان أن يتعدى الصعاب والعقبات فى حياته .

والقلب ، والايمان الذى يحل فيه ، هو السند الذى يستند اليه العقل أن ينشأ حرا متخلصا من نفوذ الشهوة ومصدرها وهو الغرائز ، وفى أن يحقق الانسان هدفه من أن يكون صاحب ارادة يتصرف بها فى « اختيار ومشيئة » دون أن يقع تحت تأثير القوى الحيوانية فيه ، وهى قوى الغرائز .

ان الايمان بالله الذى يستقر فى القلب سيلزم الانسان بنتائجه فى التفكير والسلوك . بعد أن يعبد الطريق لحرية التفكير وحرية السلوك ، فى ضغط الهوى والشهوة ، وتحكم الغرائز ، أو مما يسمى بالنفس الأمارة بالسوء .

ونتائج الايمان بالله تكاد جميعها تعود الى الصلابة فى مواجهة اغراء المتع المادية فى الحياة وزينتها ، وهى تلك التى تصورها الآية القرآنية .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متـــاع الحياة الدنيا » (١) ... فجعلت مصدر الشهوات ثلاثة : المراة ، والولد ، والمال .

والمفهوم لاغراء المتع المادية هو الوقوع تحت تأثيرها والتبعية لها . أو بعبارة أخرى : اخضاع التفكير ، والاعتقاد أو السلوك لها .

أما الاستمتاع بها دون التبعية لها فذلك أمر طبيعى ، لا يفوت على الانسان حريته فى التفكير أو الاعتقاد أو السلوك :

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٢) .

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين » (٣) .

وهنا يفرق الاسلام اذن بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا فى الحدود التى لا تجعل العقل الانسانى يخضع لسيطرة مصادر الشـــهوات من : النساء والبنين ، والأموال فى صورها المتنوعة ، وبين الاغراق فيها وعدم الافاقة من اغرائها وفتنها .

... واذا قيل بعد ذلك : ان الاسلام دين يلائم الطبيعة البشرية فذلك واضح : لأنه لا يوصى بالحرمان من متع الحياة ، ولا بالعزلة عنها ... لا يوصى بالرهبنة وأشباهها مما يجعل المادة فى الحياة أمرا غير مقبول فيها . بل يطلب الى المؤمنين فى صراحة : عدم تحريمها ، ويجعل التحريم اعتداء لا يرضى عنه الله . ففى تحريم الطيبات ومتع الحياة المادية خروج بالاسلام عن أن يكون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

... كما أنه اذا قيل : « روحية الاسلام » ضرورة حتمية لاستقامة التفكير ، والاعتقاد ، والسلوك فى محيط الانسان ومحيط المجتمع الانسانى

---

(١) آل عمران : ١٤ .
(٢) الأعراف : ٣٢ .
(٣) المائدة : ٨٧ .

فذلك واضح أيضـــا : لأنه عن طريق الأخذ بهذه « الروحية » تتوفـــر للعقل الانسانى ظروف الصحة والسلامة ، وهى الظروف التى تجعله يمارس سيادته وحريته ، دون أن يحرم من متع بدنه ، ودون أن يلزم بتكاليف لا قبل له بها .

« وروحية » الاسلام التى تقوم على الايمان بالله أولا تتحقق للفرد المؤمن : بالعبادات التى فرضها الاسلام وجعلها أصولا لا مفر منهـــا فى قيام هذه « الروحية » ، وهى عبادات :

الصلاة ،
والصوم ،
والزكاة ،
والحج ،

... وكل منها يسهم بقســـط ، فى جانب من تدريب الذات ، بحيث اذا أديت جميعها أصبحت الذات فى الطريق الحر ، أو فى طريق الأمان الذى يسير فيه العقل الانسانى نحو غايته ... أصبحت الذات حـــرة :

فالصلاة اذ يواجه فيها المؤمن ربه كل يوم خمس مرات يناشده فيهـــا أن يحول بينه وبين الاغراء بمتع الحياة الدنيا : « ... **اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » (١) ... اذا بالصـــوم تجربة عملية تتكرر فى سنى حياة الانسان لا لمنع الاغراء بهذه المتع فحسب ، وانما لمنع المتع ذاتها والحيلولة دون الاستجابة لحاجة الذات اياها . وهى تجربة تخرج منها الذات بمعنى التذوق والقدرة على تجاوز الحاجة الى هذه المتع فى الوقت المحدد ، أو فى الوقت الذى تضطر فيه الذات الى التغاضى عن هذه الحاجة وجعلها عديمة الدلالة والأثر ، اذا تعارضت تلبيتها مع تحقيق أهداف انسانية أهم وأبعد عمقا فى حياة الانسان .

واداء الزكاة ينبىء عن خطوة أهم فى تحقيق معنى القدرة الذاتية على تجاوز حاجة الذات الى متع الحياة . فهى اســـتغناء عن رضاء ،

---

(١) الفاتحة : ٥ ــ ٧ .

وتنازل عن مال مقتنى ، قربة الى الله وتوجها به الى نيل القبول عنده .

واذا كان أداء الزكاة ينبىء عن أداء هذه الخطوة من جانب المزكين فان مال الزكاة نفسه هو الضمان لتحقيق التضامن فى المجتمع الاسلامى وسد ثغرات الحقد ، التى قد توسع هوتها عزل صاحب الحاجة بسبب العجز عن أن يشعر بالتعاون والأخوة . اذا ما سيطرت الأنانية فى تصرفات الأثرياء فمسكوا أيديهم عن اخوانهم فى المجتمع من أصحاب الحاجة .

والزكاة فى مصارفها ليست فحسب لغير القادرين على سد حاجتهم فى الحياة . وانما أيضا لأولئكم الذين تحملهم جوائح الزمن على فقد مالهم ، أو تدفعهم أحداث المجتمع الى التضحية بهذا المال فى سبيل بقائه أو فى سبيل تماسكه ، بدفع الفتن أو برد العدو عن أن ينال منه .

والحج ليس الا توجها جماعيا للمسلمين فى كل مكان الى الله جلت قدرته يربطهم هدف واحد ، وهو أن يظلوا مسلمين على ايمانهم بالله ، وعلى قوتهم فى اخوتهم ، وعلى تساويهم فى القيمة البشرية ، لا يفرق بين واحد وآخر مظهر مادى من مظاهر التفرقة والاختلاف ، فى أعراض هذه الحياة .

والمؤمنون فى حجهم يعبدون الله ، ويتقربون بالحج اليه ، كما يتقربون اليه بعبادات : الصلاة ، والصوم ، والزكاة .

وهم اذن فى هذا الحج يناشدونه العون على تحقيق هدفهم فى الترابط ، والتماسك ، والاخاء ، بعد أن صفت نفوسهم وأمكن لذواتهم أن تكون على قوة وارادة — بفضل عبادتى الصوم والزكاة — تحول دون أن تقع تحت اغراء متع الحياة الدنيا .

واذا كانت لذواتهم هذه القوة النفسية فى الحيلولة دون التأثر بالاغراء المادى ، فذاك دليل على نمو المعنى الجماعى بينهم . وعندئذ يكون الالتقاء فى الحج على هدف الترابط والتماسك والبقاء على التساوى فى الاعتبار البشرى بين المؤمنين كافة ، التقاء مثمرا ، لا رياء فيه .

... وهكذا نجد أن العبادات فى الاسلام التى قامت على الايمان

بالله تتجه جميعها الى تحقيق المساواة فى الاعتبار البشرى ، كما يتجه الايمان بالله نفسه الى توفير « الحرية » للعقل البشرى ليعمل وهو فوق التأثر باغراء الشهوات .

ويمكن الآن أن يقال : ان الايمان بالله مصدر الحرية الفردية ، والعبادات فى الاسلام التى تنميه ... تحول حتما دون نشأة الروح الطبقية فى المجتمع الاسلامى ، لأن هذه العبادات تستهدف فى الدرجة الأولى اضعاف الأنانية من جانب ، وقوة المعنى الجماعى فى الذات على أساس من المساواة فى الاعتبار البشرى ، لا فرق بين انسان وآخر مهما اضيفت له من عوارض الحياة وزينة الحياة الدنيا من جانب آخر .

● والحرية الفردية التى حرص الاسلام هنا عن طريق الايمان ، والعبادات ، على توفرها فى نشاط العقل الانسانى وعمله ... حرص ايضا على أن تتوفر فى مجال التصرفات والسلوك العملى ، الذى يأتى به الانسان ، بعد أن وفرها لمن يدخل فى الايمان بالله وبرسالته .

فقد وفرها من قبل لمن يدخل فى الايمان ، بتحديد مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أولا : ليس ملزما بهداية الناس حتى يكرههم على الايمان « **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء** » (١) .

ثم ثانيا بأن طلب منه أن يسلك فى دعوته مسلك الحكمة والموعظة الحسنة .

واذا دخل فى الجدل مع آخرين فيجب أن يكون الطريق الى ذلك هو طريق الانسان المهذب :

« **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين** » (٢) .

...كما أعلن هذه الحقيقة الواضحة : « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى** » (٣) ... لتكون شعار الدعوة ، كما هى المبدأ فى قبول الايمان برسالة الاسلام .

---

(١) البقرة : ٢٧٢ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) البقرة : ٢٥٦ .

وحرص الاسلام على توفير الحرية فى مجال التصرف والسلوك العملى يتجلى فى مجال المال ابتداء من الزكاة الواجبة الأداء الى الانفاق بعدها فى أوجه النفع العامة ، فيحبب الى الانسان التنازل فى المال عما زاد عن حاجته .

فالزكاة الواجبة الأداء جعلها عبادة ليتقرب بها المزكى الى الله . والعبادة ، وهى قربى الى الله ، لا تنطوى اطلاقا على اكراه ، أو بغض ، او عدم رغبة فى الأداء .

أما ما وراء الزكاة من انفاق للمال فقد سلك القرآن الكريم كل الضروب التى تجعل الانفاق أمرا يتنافس فيه الأثرياء ، أكثر مما يتنافسون فى جمع المال واقتنائه فيقول : « **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم** » (١) .

ويقول كذلك : « **... وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وماتنفقون الا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون** » (٢) .

... ويجعل القبول عند الله لهذا التنازل مشروطا بأمرين :

أولا : أن يكون الانفاق من طيبات المال لدى صاحبه :

« **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم** » (٣) .

« **ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم** » (٤) .

وثانيا : أن يكون الانفاق نتيجة حب له ورغبة فيه ، وليست فيه شائبة حرج أو ضيق صدر ، فضلا عن اكراه فيه « ... **وآتى المال على**

---

(١) الحديد : ١١ .
(٢) البقرة : ٢٧٢ .
(٣) آل عمران : ٩٢ .
(٤) البقرة : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

حبه ــ حب الاتيان ــ ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ... » (١) .

... وذلك كله مما يهيء جو « الحرية الفردية » للتنازل عن المال ، الذى يعتبر جمعه واقتناؤه لدى الطبائع البشرية ، لو تركت وشأنها ، من أهم أهدافها فى سبيل تحقيقها :

« ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » (٢) . فشأن الطبيعة الانسانية التى لا تنفعل مع الايمان بالله أن ترغب فى جمع المال والتكاثر فيه فى جميع لحظات الحياة .

واذا كان الاسلام عمل فى مجال المال على أن تتوفر لانفاقه ظروف الحرية الفردية ... فما عدا هذا المجال يكون حرص الاسلام بالأولى فى أن تتوفر فيه هذه الظروف ، ويكون من السهل كذلك أن تتوفر فيه .

● والحرية الفردية ، أو المشيئة ، أو الاختيار التى يوفرها الاسلام للمؤمن عن طريق الايمان بالله ــ كما رأينا ــ كما أنها الضمان لأن يلتزم الانسان بروح المساواة فى الاعتبار البشرى بين الناس جميعا ونبذ روح الطبقية فى المجتمع ... هى فى واقع الأمر الظاهرة التى تفرق بين الفلسفة الأوروبية فى شأن المجتمع ، وبين الاسلام فيما يجدد مقومات المجتمع الانسانى .

ان سيادة « الروح الطبقية » فى اى مجتمع هو عنوان على ضعف الحرية الفردية أو على تلاشيها فى أفراده .

ما معنى أن تكون هناك طبقات فى المجتمع ؟ .

معنى أن تكون فى اى مجتمع طبقات هو أن تكون هناك حواجز نفسية على الأقل تفصل بين مجموعة كطبقة ومجموعة أخرى كطبقة أخرى . والحواجز النفسية تعود الى « النظرة » التى تنظر بها كل مجموعة الى الأخرى .

تلك تنظر الى مجموعة على أنها ادنى منها ، وهذه تنظر الى تلك على انها ارفع منها . وربما يرجع اختلاف النظرتين الى فرق فى الثراء .

---

(١) البقرة : ١٧٧ . (٢) التكاثر : ١ ، ٢ .

او فى الجاه ، أو فى التقاليد الموروثـــة ، أو فى القوة والضـــعف ، أو فى الاستغناء والحاجة لأى من المجموعتين .. وهلم جرا ... من الأمـــور التى هى وراء خصائص الطبيعة البشرية ، وتعد من عوراضها ، وليس من مقوماتها .

والفرد الذى يأخذ فى نظرته وتقديره بهذه العوارض لم يتخلص بعد من اغرائها وفتنتها ، أو هو واقع تحت هذا الاغراء ومأخوذ ببريق ما لها من فتنة . وذلك شأن الفرد غير « الحر » الذى لم يتحرر من تحكم شهواته ، بفضل ما له من ايمان بالله يقف به فى مواجهتها ومتحديا اياها .

ان الفكر الأوروبى الغربى يمجد ـــ عادة ـــ الحرية الفردية . ولكنه لا يرى هذه الحرية فى التخلص من تحكم الشهوات وسيطرة الغرائز . بل على العكس يراها فى الانطلاق لتبرير :

شـــهوة اللسان ،

وشـــهوة البطن ،

وشـــهوة الفرج والاسترسال فيها .

والفكر الماركسى اللينينى ـــ أو الفكر المادى التاريخى ـــ يضـــمن الحرية الاجتماعية حرية الأفراد . غير الحرية الفردية غير مستقلة . وغير جديرة بالاستقلال . بل ينظر اليها فى نطاق تحرر المجتمع مما يســـميه استغلال رأس المال عن طريق الغاء الملكية الفردية .

وطالما ينظر الفكر الماركسى اللينينى الى الحرية الفردية على أنها غير مستقلة ، فليس مطلوبا من الأفراد أن يسعوا بذواتهم الى التخلص من تحكم غرائزهم وشهواتهم .

ثم اذا كانت لهم غرائز وشهوات فلا يرون فى الحياة الدنيا ، بحكم الغاء الملكية الخاصة ، مالا حتى تكون له زينة واغراء ، ولا يرون كذلك أولاد لأنهم ليسوا لهم بل للدولة ، وليسوا هم مسئولين عنهم مسئولية شخصية ، وبذلك لا يكون الأولاد مصدر فتنة وزينة لهم . أما النســـاء فقد خلق مبدأ المساواة الكاملة بين الرجل والمراة فى التفكير الماركسى جوا

يحول دون أن تكون المرأة زينة فى حياة الرجل يؤثرها ويتعلق بها ، كما يتعلق الحريص على موجود يعزه ويقاتل فى سبيله .

والذى يعدم شخصيته واستقلاله الفردى لا يكون موضـــوع حديث كانســـان . ولذا يتحدث عنه الفكر الماركسى كجزء فى كل ، أو كترس فى عجلة . فهو يعد لحركة ، ولا يتحرك بذاته ، فضلا عن ان يكون مختارا أو مكرها فى تحركه .

ثم اذا حرم الفرد فى نظام الحكم الماركسى اللينينى من مصادر الزينة والمتع فى الحياة الدنيا وهى : المال ، والولد ، والمرأة ـــ وعندئذ ليس فى حاجة الى جهد لتخليص ذاته من اغرائها وفتنتها ـــ فانه لا شك يتطلع اليها ، مهما كان الكبت ، وكانت درجة الحرمان . وهو الآن مكره على قبول الحرمان . فلا يقال : انه تحرر من الضغط ، ويستطيع أن يكون الآن حرا فى تفكيره ، واعتقاده ، وسلوكه .

وطالما الفرد فى نظام الحكم الماركسى اللينينى مكره على الحرمان ، فهو غير مختار وغير ذى مشيئة . وهو الآن مساوق للفرد فى نظام التفكير الغربى فى فقد الحرية الفردية . الا أن الفرد الماركسى مكره من قبل نظام الحكم فى المجتمع ففقد حريته الفردية . أما الفرد الآخر فى النظام الغربى فقد أطلق لنفسه عنان الشهوات ففقد حريته الفردية بسيطرة الغرائز على عقله .

كل منهما ـــ الفرد فى النظام الماركسى والآخر فى النظام الرأسمالى ـــ ليست له ارادة يرتفع بها فوق مجال الضغط والاكراه .

كل منهما يكاد يفقد انسانيته ، لأنه يفقد حريته الفردية بسبب أو بآخر .

كل منهما تابع وخاضع : هذا الماركسى اللينينى تابع لقهر نظام الحكم الذى يعيش فيه ، وذاك الغربى تابع للشيطان نفسه ، وهو ما تصوره المعدة والفرج .

كل منهما عبد ورقيق : هذا الماركسى اللينينى عبد ورقيق لغيره ، وذاك الغربى عبد ورقيق لشهوة نفسه الامارة بالسوء .

والمجتمع الذى تفقد أفراده الحرية الفردية باكراه أو بضغط ، لابد أن يكون مجتمعا طبقيا .

فالمجتمع الذى تتبع أفراده شهوات النفس هم أنانيون بحكم هذه التبعية سعيهم فى الحياة بسبب أنانيتهم ، ومن أجل تحقيق أهدافها . وأهداف الأنانية لا تخرج عن نطاق الذات وما لها من شهوات ورغبات : لا تخرج عن نطاق القوة للذات ، وجمع المال من أجل الذات ، وتحصيل الحياة لخدمة الذات ، وتحصيل المتع لامتاع الذات ، وكثرة الأولاد فى سبيل عصبية الذات.

وعندئذ يكون هناك فى المجتمع :

أقوياء بقوة السلاح مثلا يحافظون على قوتهم ويعتزون بها ،

وأثرياء يحافظون على ثرواتهم ويفخرون بها ،

وأصحاب جاه يسعون لبقاء هذا الجاه لهم ويمجدونه فيهم ،

ومترفون يعيشون فى الأرض فسادا ، توفيرا لترفهم ويباهون بـه ،

وأصحاب عصبية فى الأسرة أو فى القبيلة يتطاولون بعصبيتهم ويحافظون على تفوقها فى الكثرة .

وبجانب هؤلاء يوجد فى المجتمع أيضا آخرون :

ليس لهم مـا يملك هؤلاء من أسباب القـوة والثراء ، والجـاه ، والترف ، والعصبية . فهم أدنى منهم فى كل ذلك .

وبمرور الأجيال على هذا التميز والتفرقة تظهر « الطبقية » ويبدو استعلاء طبقة على أخرى ، وخضوع طبقة لأخرى : استعلاء الطبقة القوية ، أو الثرية ، أو صاحبة الجاه ، أو صاحبة العصبية ، أو التى تملك أسباب الترف على الأخرى الضعيفة ، أو الفقيرة ، أو عديمة الجاه ، أو من لا عصبية لها . وخضوع الطبقة الضعيفة للقوية ، والفقيرة لذات الثراء ، وعديمة الجاه لصاحبته ، وقليلة العصبية لصاحبة الكثرة فيها .

واذا تحكم الاستعلاء بفعل الأنانية فى مجموعة من الأفراد كطبقة ، وتحكم الخضوع والتبعية فى مجموعة أخرى بحكم العجز وعدم القدرة على بلوغ ما بلغته المجموعة المستعلية ... فان روح الطبقية تتحول الى عامل أصيل

فى قيام المجتمع ، وفى تغييره على السواء مهما طال الزمن ، ومهما كانت الطبقة التى تسعى الى التغيير .

وطالما الأنانية باقية فروح الطبقية كذلك ، كظاهرة اجتماعية لهـــا .

والمجتمع الآخر الماركسى اللينينى الذى يخضع أفراده لغيرهم فهذا الخضوع للغير ظاهرة من ظواهر الطبقية فيه ، فالمجموعة التى تخضع غيرها تتميز حتما عن تلك التى تخضع لها وتكره على التبعية لتوجيهها :

الأولى تتميز بالاستعلاء ، مهما ادعت أو نادت بنداء الرفاق والأصدقاء.. تتميز بالاستعلاء ، لأنها صاحبة الأمر والكلمة والتفرد بالسلطة : وهى طبقة الحزب .. وهو الحزب الشيوعى أو العصبة الشيوعية فى الاتحاد الاشتراكى لقوى الشعب كما فى نظام يوغسلافيا ــ وهو الحزب الوحيد الذى يسمح به فى نظام الحكم الماركسى اللينينى .

... بينما تتميز المجموعات الأخرى ، وهى مجموعات الجيش والعمال ، والبرجوازيين على اختلاف فى درجاتهم ومنازلهم بالطاعة وعدم النقـــد والمعارضة ... طاعة المكره ، وليست طاعة المؤمن ، وعدم نقد الخائف ، وليس عدم نقد المقتنع ، وعدم معارضة الأجير الذى يحافظ على لقمـــة العيش : الخبز ، وليس عدم معارضة صاحب المصلحة القومية .

ونظام الحكم الماركسى اللينينى من أجل ذلك يتميز بظواهر :

أولاها : احتكار الحزب الواحد للسلطة . ويحرص هذا النظام اشـــد الحرص على أن تكون جميع مقاليد الرقابة والسلطة بيد أعضائه . ولا يسمح اطلاقا بأن يكون هناك تعدد لأحزاب سياسية ، كما لا يسمح بنقل هذه السلطة لغير أعضائه من بقية أفراد المجتمع مهما كان شأنهم . اذ تعدد الأحزاب سيتيح الفرصة للمنافسة على الحكم من جانب ، ولاظهار نقائض الحزب الآخـــر فى سياســـته من جانب آخـــر . وبذلك تذهب « قداسة » الحزب ومكانته فى المجتمع ، وبالتالى ينقد صلاحيته كطبقة خاصة فى الاستعلاء وفى الطاعة له .

كذلك اذا لم تكن السلطة احتكارا لأعضاء الحزب وباشرها نفر من غيرهم تكون النتيجة نفس الشىء بالنسبة للحزب وقدسيته .

والمذكرة (١) التاريخية التى أرسلها زعماء الأحزاب الشيوعية الخمسة فى أوروبا الشرقية وهى : الاتحاد السوفييتى ، وبلغاريا ، وبولندا ، والمجر ، والمانيا الشرقية ، بعد تداولهم فى عاصمة بولندا فى شهر يوليو سنة ١٩٦٨ الى رئيس دولة تشيكوسلوفاكيا تطلب فيها حضور المسئولين الشيوعيين فى براج — وفى مقدمتهم (Dubcik) السكرتير العام للحزب — الى « وارسو » العاصمة البولندية لمسألتهم عما يسمى بـ « ضياع سلطة الحزب » فى الاصلاحات التى وافق عليها الحزب الشيوعى التشيكى وأثارت ضجيج هذه الأحزاب ، اذ اعتبروها ثورة مضادة للاشتراكية .. تنبىء عن مدى حرص النظام الماركسى اللينينى على « ديكتاتورية » الحزب وتفرده بالسلطة وحده ، ابقاء على « مصلحة الحزب » فى السيادة ، والتمنع بمنزلة الطبقة الحاكمة المقدسة .

وحرص النظام الماركسى اللينينى على الملكية العامة — والغاء الملكية الفردية — وانما هو للتحكم فى أفواه الأفراد فى المجتمع ، وفى اكراههم على قبول الحرمان ، وقيود العمل أى عمل ... ولا يقل اطلاقا حرصه على ديكتاتورية الحزب فى السلطة ، وفرض الرقابة على النشر وأجهزة الاعلام .

... وهكذا تحولت الثورة البلشفية فى أكتوبر سنة ١٩١٧ التى قامت مدعية أنها لصالح العمال ضد الطبقة الارستقراطية من أسرة القيصر وأصحاب رؤوس الأموال والاقطاع ، وضد الطبقة الأخرى البرجوازية من الادرايين والمتقدمين تحت شعار : صراع الطبقات لخلق مجتمع « عديم الطبقات » ... تحولت الى مجتمع طبقى ينصل فيه بين الطبقة والأخرى .

« الاكراه » من جانب ، والخضوع من جانب آخر .

« والقدسية » من جانب وانتهاك الحرمات من جانب آخر .

« وديكتاتورية » الرأى والسلطة من جانب وعدم السماح بالرأى وعدم المشاركة فى السلطة من جانب آخر .

---

(١) مقتبس من المجلة الألمانية (der Spiegel) عدد ٢٩ ص ٤٧ فى ١٥ يوليو سنة ١٩٦٨ .

ان مجتمع الثورة الماركسية يكاد يمثل مجتمع العبيد فى القرن العشرين الذى استحل فيه الرق الجماعى لفريق من الأسياد يدفع الثمن البخس ولكن فى شكل اجور ، دون أن تكـــون لهذا الفريق ميزة فى اســـتقلاله بالسيادة سوى : الارهاب الذى تقوم به تشكيلات مختلفة لحماية ما يسمى بـ « الثورة » وفى مقدمتها : الجيش والحرس ، ومنظمة الشباب .

واذا كان للأفراد الأرقاء فى نظام الرق القديم أمـــل فى التحرر عن طريق « العتق » أو « المكاتبة » ... فهذا النظام الماركسى فى الاسترقاق لا يترك بصيصـــا من أمل فى الخـــلاص من رقه وعبوديته ومن اكراهه وارهابه .

ان القرن العشرين يشهد وضع « الحرية الفردية » ـــ كما رأيناه اما فى الانطلاق نحو شهوة البطن والفرج ، أو فى الكبت والحرمان ـــ فى المجتمع الأوروبى ، فى الشرق ، وفى الغرب ، كما لم يزل يشهد « روح الطبقية » فى تكوين هذا المجتمع ، وفى قيامه ، وفى تغيره ، رغم الفلسفة الماركسية التى بشرت بالمجتمع « عديم الطبقات » ، ورغم الثورة البلشفية التى قامت فأسست نظاما للحكم انقضى عليه خمسون عاما على أساس من هذه الفلسفة .

... ان القرن العشرين يشهد فى أوروبا « انطلاق » الأغراد فى سلوكهم فى المجتمع ، كما يشهد « اكراههم » وارهابهم ، وحرمانهم فى مجتمع آخر .

ومع ذلك يشهد ثورة تيكنولوجية لم يشهدها التاريخ البشرى فى يوم من الأيام التى مضت .

وهذه الثورة التيكنولوجية هى وليدة الحرب العالمية الثانية ، كما هى وليدة الخوف والقلق فى المجتمع الغربى والشرقى على السواء ، بعد انتهاء تلك الحرب والفوز فيها لمن يعرفون اليوم بالمعسكر الغربى والمعســـكر الشرقى ، وقد كانوا حلفاء فيها .

ان حرص الحلفاء ـــ وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية ـــ على النصر فى الحرب الـ الية الثانية دفعهم الى الانفاق كثيرا على البحـــوث العلمية وتطبيق نتـ فى مجـــال الصـــناعة خدمة للأغراض الحربية ، ومساعدة على الخرو تلك الحرب بنصر قوى وعاجل .

وقد حققت النفقات الكثيرة على البحوث العلمية وتطبيق نتائجها فى

مجال الصناعة للأغراض الحربية تقدما كبيرا فى التيكنولوجيا شـــجع على الاستمرار فى هذا التقدم بعد الحرب :

العون الكبير من قبل الشركات الصناعية فى الغرب كله ، ومساعدة الحكومات لبرامج هذا التقدم للأغراض السلمية .

ثم ما ان انتصر الحلفاء على دول « المحور » فى تلك الحرب العالمية الثانية حتى انقسموا الى معسكرين متقابلين : معسكر الشرق بزعامة الاتحاد السوفييتى ، ومعسكر الغرب بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية ، وابتدأت المنافسة على زعامة العالم فى مجال السياسة والاقتصاد بين هاتين الكتلتين ، كما ابتدأ الصراع الطبقى الماركسى يظهر بينهما كذلك : احداهما كممثلة للحركة العمالية العالمية ، والأخرى كممثلة للرأسمالية الصناعية .

وبسبب هذا الصراع الطبقى ، وكذلك بسبب التنافس على الزعامة العالمية السياسية والاقتصادية اشتد الاقبال داخل المعسكرين على استخدام العلماء ، والاغداق عليهم والانفاق فى سخاء منقطع النظير على البحوث العلمية والمجالات الصناعية لتطبيق نتائجها ، أمـــلا فى كسب الزعامـــة العالمية ، وكذلك أملا فى اخضاع المعسكر المقابل .

ثم بسبب تقدم البحث النووى وتفجير الذرة ، وصنع القنبلة الذرية ، ثم الهيدروجينية انقطع الأمل فى تحطيم أى من المعسكرين للآخر ، وظـــل كسب الزعامة العالمية مع وضع الحرب « الباردة » موضع الحرب الساخنة فى استمرار الصراع الطبقى بين الكتلتين ... هدفا للتنافس بينهما .

ولكن وجـــود الكشف النووى ، وصنع القنابل الذرية والهيدروجينية أثار القلق والخوف بل والرعب ، داخل المعسكرين .

وبسبب هذا الخوف والرعب نشـــطت الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نشط الاتحاد الســـوفييتى فى الاقبال على جذ ، العلمـــاء من كل بلد والانفاق الباهظ على وسائل الحماية ـــ وهى متعد ـــ من الخطر النووى .

وما زال الانفاق يستنزف الكثير من ميزانيـ ـاتين الدولتين فى سبيل الحماية من الأخطار النووية . وكلما حددت وسـ ـيلة للوقاية منها اكتشفت وسيلة أخرى للقضاء على صلاحيتها .

... وهكذا : حلقة مفرغة من البحوث العلمية ، ومن وسائل التقدم التيكنولوجى ، ومن المختبرات ومراكز التجارب ...

وانتقل البحث العلمى من الأرض الى الفضـــاء ، وانتقل التقـــدم التيكنولوجى من الصواريخ المختلفة الأبعاد والعابرة للقارات الى مضـــاد لتلك الصواريخ ، ثم انتقل كلية من مجال الصواريخ والفضاء الى الأقمار الصناعية ، وسفن الاستخبارات ، والعقول الآلية ، والطائرات الآليـــة الرقابة ، والغواصات النووية ، والقواعد الحربية فى قاع المحيطات ...

والعلماء الذين يعملون فى حقول البحث العلمى المختلفة وفى مجال الهندسة التطبيقية سواء فى المجتمع الرأسمالى أو الآخر الماركسى اللينينى فى الاتحاد السوفييتى ... انما يعملون تحت اغراء المال وفتنته . فمرتبات ولو أنـــه كانت لهم حرية فردية فى البحث والكشف والانتاج لمـــا يدخل فى مجال الخيال .

وهناك يمكن أن يقال : ان هؤلاء العلماء فى بحوثهم وفى انتاجهم لم يتخلصوا من اغراء المال وفتنته . ولذا فهم لا يتمتعون بالحرية الفردية فى كلا المعسكرين .

ولو أنـــه كانت لهم حـــرية فردية فى البحث والكشف والانتاج لما اقدموا على تسخير العلم والهندسة التطبيقية فيما يدمر البشرية تدميرا كاملا ، ولآثروا أن يخدموا بعلمهم وانتاجهم خير البشرية ، ويطلبون ممن يؤجرونهم على البحوث والانتاج أن يوجهوا بعضـــا من تلك النفقـــات الباهظة المستمرة والمكشوفة منها ، والمتزايدة ، للشعوب الفقيرة فى تطويرها صحيا ، واجتماعيا وعلميا ، وثقافيا .

ومن هنـــا يمكن من الأسف أن يقال : ان هـــذا التقـــدم العلمى والتيكنولوجى فى الشرق والغرب هو وليد :

١ ـــ الخوف ، والقلق لدى الكتل المتنافسة على الزعامة العلمية .

٢ ـــ وهو نتيجة الانفاق الباهظ ، وفى كثير من الأحيان على حســـاب مستوى المعيشة لدى بعض هذه الكتل .

٣ ـــ وكذلك نتيجة أيضا لعدم توفر « الحرية الفردية » لدى العلماء

الباحثين . اذ أنهم يخضعون في بحوثهم لاغراء المال وفتنته . وعملهم العلمي لذلك يتسم باللاأخلاقية .

ولولا بريق هذا التقدم العلمي والتيكنولوجي في القرن العشرين لانكشف المجتمع الشرقي الماركسي ، وكذلك المجتمع الغربي الرأسمالي ، واتضح عيانا أن كلا من المجتمعين يفقد الفرد فيهما حريته الفردية : أحدهما بسبب الاغراق في شهوات المال والنساء والأولاد ، والآخر بسبب الاكراه والارهاب .

ولكن هذا البريق اللامع لا يستر فحسب هذا النقص اللاانساني ، وانما مع ذلك يغري المجتمعات الأخرى غير الأوروبية على التقليد والسير في ركب التبعية لهذا المجتمع . أو لذاك .

ومن الأسف كذلك أن هذا التقدم التيكنولوجي جعل المقاييس اللاأخلاقية هي السائدة في قتل الأفراد ، أو في ترفيههم ، وفي افناء الشعوب والحضارات . ولكن لأنه تقدم مادي ملموس لم تعد تسمع للأخلاق وللروحية كلمة . كما لم يعد رجال الأخلاق والروحية يمثلون القيم الانسانية . وانما كادوا كذلك يخضعون كذلك هذه القيم الانسانية للأخلاقية وللاروحية .

***